الرحمة النبوية بغير المسلمين

وصايا ومواقف عملية وبيان أسباب الشدة النبوية

في بعض المواقف

إعداد

سليمان بن محمد بن خلفان الكعبي

مشرف تربوي (مادة التربية الإسلامية)

وزارة التربية والتعليم – سلطنة عمان

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم , والصلاة والسلام على إمام المرسلين ورحمة الله للناس أجمعين, وعلى آبه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين, وبعد

فإن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة فقال سبحانه وتعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام 54], كما أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إماما ورحمة للعالمين, فقال سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)﴾ [الأنبياء], وكأن الله سبحانه وتعالى – في هذه الآية – حصر بعثته عليه السلام في الرحمة, لما لها من دور عظيم, وقيمة كبيرة وهامة في الدعوة لله سبحانه وتعالى, ووصف الله نبيه عليه السلام بقوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)﴾ [التوبة], وقد تجلت مظاهر الرحمة النبوية في معاملته للناس كافة, المسلم وغير المسلم, وفي هذا البحث المبسط سأحاول الكشف عن بعض مظاهر الرحمة النبوية بغير المسلمين من خلال مواقف من حياته ومعاملاته اليومية للبشر, وكذلك من خلال وصاياه وتوجيهاته لأصحابه في كيفية التعامل مع غير المسلمين.

ويهدف هذا البحث إلى بيان الخلق النبوي في الرحمة بغير المسلم, والتعرف على التوجيهات الربانية الواردة في آيات القرآن الكريم في كيفية معاملة غير المسلمين, والوقوف على بعض أقوال النبي عليه السلام وتوجيهاته التي تدعو للرحمة بغير المسلمين, مع طرح نماذج عملية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم تؤكد رحمته بغير المسلمين, بالإضافة إلى استخلاص آثار الرحمة النبوية على غير

المسلمين, كما سيتناول البحث توضيحاً لأسباب شدة النبي عليه السلام في التعامل مع بعض غير المسلمين في بعض المواقف والمواطن التي شهدتها حياته النبوية عليه السلام.

وجاء هذا البحث موزعاً على مقدمة , وتعريف بمصطلحات البحث, وثلاثة مباحث وخلاصة كالآتي

المقدمة.

مصطلحات البحث الرحمة – غير المسلم.

المبحث الأول التوجيهات الربانية في معاملة غير المسلمين.

المبحث الثاني الرحمة النبوية بغير المسلمين ويتضمن الآتي

1. حرص النبي عليه السلام على دعوة وهداية غير المسلمين.
2. وصايا النبي عليه السلام للمسلمين في معاملة غير المسلمين (في السلم والحرب).
3. مواقف نبوية عملية في التعامل مع غير المسلمين.
4. آثار الرحمة النبوية على غير المسلمين.

المبحث الثالث الشدة النبوية في معاملة غير المسلمين نماذج وأسباب.

الخاتمة خلاصة نتائج البحث.

واتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي لأقوال النبي عليه السلام وأفعاله العملية التي تؤكد على رحمته عليه الصلاة والسلام , واستنتاج أبرز نتائج التعامل النبوي بخلق الرحمة مع غير المسلمين, وأسباب الشدة التي ظهرت في معاملة بعضهم.

أما فيما يتعلق بالأحاديث النبوية وتخريجها فقد حرص الباحث على انتقاء الأحاديث الصحيحة والتأكد من صحتها, فغالبها من أحاديث الصحيحين (البخاري ومسلم), أما بخصوص الأحاديث التي انتقاها من بقية كتب السنة فقد حرص أيضاً على التأكد من صحتها من خلال ما قاله علماء الحديث, كالشيخ الألباني, والاستفادة مما قاله محققو تلك الكتب.

والله تعالى أسأل الإعانة والتوفيق, والتيسير والقبول, وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم, وأن ينفع به من يقرأه وصلى الله وسلم على رسوله الكريم وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مصطلحات البحث

ويشمل الرحمة, وغير المسلم.

أولاً الرحمة

تأتي في اللغة بمعان كثيرة منها الرقة والعطف و الرأفة, وجاء في القاموس المحيط "الرحمة الرقة والمغفرة والتعطف" [1], وقال ابن منظور "الرحمة المغفرة وهي رقة القلب وعطفه [2], وقال الجرجاني هي "إرادة إيصال الخير" [3].

وفي الاصطلاح حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب, وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان" [4], وقيل أنها "رقة القلب وانعطاف النفس المقتضى للمغفرة والإحسان" [5], ومما سبق يمكننا القول بأن الرحمة فعل الراحم من رقة وتلطف وتعطف وإحسان, فهي رقة في القلب يصاحبها حب الخير للآخر, وعطف عليه ورأفه به من حصول الضرر له, والمغفرة والعفو والتسامح من الأمور التي تصاحب الرحمة, ومن صفات الراحم.

ثانياً غير المسلم

هو كل من لم يؤمن بالله سبحانه وتعالى ربا واحدا, لا شريك له ولا ندا, ولم يؤمن برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعد بعثته, ولم يدخل في دين الإسلام الذي ارتضاه الله سبحانه

([1]) الفيروز أبادي, القاموس المحيط ج4, ص 68.
([2]) ابن منظور, لسان العرب ج 12, ص 230.
([3]) الجرجاني, كتاب التعريفات, ص 110.
([4]) الحسيني, الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية.
([5]) العفيفي, من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم الخلقية والخُلقية, ص 364.

وتعالى للناس, ونسخ به الشرائع والأديان السماوية السابقة, وأيضاً من أنكر أصلا من أصول الإسلام المعلومة بالضرورة كالصلاة والصوم والزكاة والحج, ويطلق عليهم لفظ الكفر, والواحد منهم كافر, والكفر وصف يشمل كل من كذب الرسول عليه الصلاة والسلام, في شيء مما جاء به, أو صدقه وامتنع عن الدخول في الإسلام, يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "الكفر يكون بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به, أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه" [1], والكفار إما أهل حرب, وإما أهل عهد, وأهل العهد ثلاثة أصناف أهل ذمة, وأهل هدنة, وأهل أمان, والخلاصة أن غير المسلم يراد به كل ما سوى المسلمين من أهل الملل والأديان الأخرى غير الإسلام.

([1]) ابن تيمية, درء تعارض العقل والنقل ج1, ص 242.

المبحث الأول

التوجيهات الربانية في معاملة غير المسلمين

الرحم صفة من صفات الله سبحانه وتعالى, فهو سبحانه الرحمن الرحيم, كما كتب سبحانه وتعالى على نفسه الرحمة, وأخبر أنه هو الغفور لعباده الذين تابوا وعملوا الصالحات, والرحيم بهم في الدنيا والآخرة, ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن أرسل إليهم رسولاً منهم رحيماً بهم, ووصفه بانه على خلق عظيم, وأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾, وقد ظهرت رحمته صلى الله عليه وسلم بالخلق أجمعين المسلم منهم والكافر, حتى بلغ به الحال من شدة حرصه ورحمته بالناس إلى إرهاق نفسه وازهاقها في سبيل دعوته لهم, واقناعهم بالدخول في دين الإسلام, حتى نزل عليه قول الله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)﴾ [الكهف], وقوله سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر 8], كما بين الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كيفية التعامل مع غير المسلمين مما يقتضى الرحمة بهم وحسن المعاملة لهم, وفيما يلي بعضا من التوجيهات الربانية الواردة في القرآن الكريم التي توضح كيفية التعامل

- أوصى الله سبحانه وتعالى نبيه عليه السلام باتباع بأحسن الأساليب في دعوة الكفار والمخالفين, كل ذلك من قبيل الرحمة والرفق في الدعوة, فقال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل 125], يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية "من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال, فليكن بالوجه الحسن برفق ولين

وحسن خطاب" [1], كما يقول السعدي رحمه الله في تفسير الآية ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم كل على حسب فهمه وقوله وانقياده, ثم يقوم وبالأقرب إلى الأذهان والفهم, وبما يكون قبوله أتم, وبالرفق واللين [2].

وقريباً من معنى هذه الآية فقد جاء توجيه الله سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم في مجادلة أهل الكتاب خاصة, بحسن المجادلة فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾[العنكبوت 46], والمعلوم أن أهل الكتاب غير مسلمين, ومنهم العدو الذي يظهر عداوته, ومع ذلك جعل الله سبحانه وتعالى مجادلتهم بالحسنى, ومعاملتهم بالرفق والرحمة, إلا من أبى منهم, وبغى واعتدى بظلم على مسلم, وحاد عن وجه الحق وعاند وكابر, وأعلن الحرب على الإسلام والمسلمين[3].

- حض الله سبحانه وتعالى نبيه عليه السلام على معاقبة الكفار بمثل ما صدر منهم, من غير زيادة على ذلك, وبين له أنه من باب الإحسان والرفق والرحمة بأن الصبر على أذاهم والعفو عن خطأهم أفضل وأحسن في سبيل تحقيق أهداف الدعوة, ونشر الخير, قال تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)﴾ [النحل].
- ومن توجيهات الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام في معاملة غير المسلمين ما جاء في قوله سبحانه وتعالى﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ

(1) ابن كثير, تفسير القرآن العظيم, ج2, ص 613.
(2) السعدي: تيسير الكريم المنان, ص 452.
(3) انظر: التفسير الميسر, ص 402.

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة 13], وهذا أمر من الله عز ذكره لنبيه عليه السلام بالعفو عن هؤلاء القوم [1], وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن اليهود وما يصدر عنهم من نقض للعهود والمواثيق وصد عن سبيل الحق والدين, وتحريف الآيات عن مواضعها, فهم أهل خيانة وغدر يسيرون على منهاج أسلافهم – إلا قليلاً منهم, ومع ذلك يوجه الله سبحانه وتعالى نبيه عليه السلام إلى العفو عن سوء معاملتهم, والصفح عنهم [2], في إشارة إلى خلق الرفق والرحمة التي ينبغي أن يتحلى بها الداعي إلى سبيل ربه تبارك وتعالى.

- ومن توجيهات الله سبحانه وتعالى التي تشعرنا بالتأديب الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم على حسن المعاملة والرفق بالناس قوله تعالى﴿ خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)﴾ [الأعراف], فبعد أن عدد الله سبحانه وتعالى ما عدده من أحوال المشركين, وبين سفه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ العفو من أخلاق الناس, والعفو هنا ضد الجهد, وأمره أيضاً بأن يأمر بالمعروف وهو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن لها النفوس, كما أمره بالإعراض عن الجاهلين [3], وهذه الجملة من الأخلاق الربانية كلها عوامل مساعدة على حسن الخلق, وتنطلق من الرحمة في معاملة الخلق – مسلمهم وكافرهم–.

- ومن التوجيهات الربانية للنبي عليه السلام قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6)﴾ [الكهف], حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

([1]) تفسير الطبري, ج 10, ص 134.
([2]) التفسير الميسر, ص 109.
([3]) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم, ج3, ص 125.

حريصاً على هداية كفار مكة إلى الإسلام, وكاد من شدة رحمته وشفقته عليهم أن يهلك نفسه, حزناً وحسرة بسبب إصرارهم على كفرهم, فنهاه الله سبحانه وتعالى عن ذلك, يقول الزمخشري "شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به, وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم, ويبخع نفسه وجدا عليهم, وتلهفا على فراقهم" [1], وبعد هذه الاستنكار الرباني من شدة الشفقة النبوية والرحمة بمن لم يؤمن بآيات الله وأصر على كفره وعناده, وجه الله سبحانه وتعالى نبيه بقوله ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر 8], ففي الآية توجيهان للنبي صلى الله عليه وسلم الأول أن الهدى بيد الله سبحانه وتعالى وحده, يهدي من يشار ويضل من يشاء, والتوجيه الثاني عدم إهلاك النفس وتحسرها من شدة الشفقة والرحمة على من أصر على الكفر وعدم الإيمان.

- كما أن الله سبحانه وتعالى وجه نبيه عليه السلام إلى عدم الحزن عليهم فقال جل ذكره ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176)﴾ [آل عمران], أي "لا يُدخل الحزن إلى قلبك – أيها الرسول – هؤلاء الكفار بمسارعتهم في الجحود والضلال"[2], قال أبو حيان في البحر المحيط "قيل مثير الحزن هو شفقته صلى الله عليه وسلم وإيثاره إسلامهم حتى ينقذهم من النار, فنهي عن المبالغة

(1) الزمخشري, الكشاف, ج2, ص 518.
(2) التفسير الميسر, ص 73.

في ذلك.. وهذا من فرط رحمته للناس, ورأفته بهم" [1], ومما سبق من الآيات يتبين لنا مدى الرحمة النبوية بغير المسلمين, حتى كاد يهلك نفسه, تحسرا عليهم وحزناً بسبب إعراضهم.

- ومن توجيه الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم, ولجميع المسلمين في معاملة غير المسلمين ما جاء في قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) ﴾[الممتحنة], فقد أباح الله سبحانه وتعالى للمؤمنين معاملة الكفار معاملة حسنة إذا لم يكونوا أعداء مقاتلين, والبر بهم والقسط في معاملتهم لاسيما إذا كانوا من الأقارب, وفي الآية إشارة للمؤمنين بأنهم "إذا كانوا في حال قوة وعدم خوف وفي مأمن منهم, وليس منهم قتال, وهم في غاية المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم, وهذ مما يرفع شأن الإسلام والمسلمين, بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن منهم, وعدم معاداة من لم يعادلهم" [2], ومن هذا المنطلق عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير المسلمين كما سنبينه في المبحث التالي.

([1]) أبو حيان, البحر المحيط, ج3, ص 126.

([2]) تتمة أضواء البيان, ج8, ص 101.

المبحث الثاني

الرحمة النبوية بغير المسلمين

شهد الله سبحانه وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رحمة للعالمين جميعاً, المؤمن منهم والكافر, وأخبر عنه أنه حريص على هدايتهم, وادخالهم في دين الإسلام جميعاً, ورحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين المؤمنين أمر معلوم؛ فهم اتباعه ومحبوه, وهم الذين يعتقدون عقيدته, ويدينون بدينه, لكن رحمته صلوات الله وسلامه عليه لم تقتصر على المؤمنين بل شملت حتى الكافرين به, ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله (أنا نبي الرحمة), وبقوله (إِنِّي لم أُبعَث لَعَّاناً وإِنَّمَا بُعثتُ رحمةً) – أخرجهما الإمام مسلم في صحيحه –, فرحمته عليه السلام اقتضت منه عدم اللعن على مخالفيه, وإنما الحرص على هدايتهم وحسن معاملتهم, وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم في التوراة أنه "ليس بفظٍّ ولا غليظ, ولا سخاب بالأسواق, ولا يدفعُ السيئة بالسيئة, ولكن يعفو ويصفح, ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة, العوجاء, بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً, وآذاناً صماً, وقلوباً غلفاً" رواه البخاري (رقم الحديث 2125), والمتتبع للسيرة النبوية يجد الكثير من الشواهد الدالة على الرحمة النبوية في التعامل مع غير المسلمين, وكل ذلك برحمة منه سبحانه وتعالى وفضل ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران 159], وقد تعددت الشواهد الواردة في سيرته صلى الله عليه وسلم التي تؤكد رحمته بغير المسلمين, وفيما يلي سأقف على بعض من تلك الأمثلة, وقد قسمتها على ثلاثة جوانب هي

- **حرص النبي عليه السلام على دعوة وهداية غير المسلمين**

تعددت الأمثلة من السنة النبوية التي تشير إلى حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية غير المسلمين, والسعي إلى انقاذهم من النار والهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة, وذلك كله نابع من رحمته بهم, وسماحته في معاملتهم, وحسن خلقه معهم, فتارة يعفوا, وتارة يدعو لهم بالهداية, وأخرى يعظهم ويذكرهم حتى في آخر رمق من حياتهم رجاء انقاذهم من النار, "فقد كانت العلاقة بينه صلى الله عليه وسلم وبين المخالفين لهم أعلى بكثير من مجرد علاقة سلام وئام, إنها كانت علاقة برّ بكل معاني الكلمة [1]", ومن بين تلك الشواهد النبوية على رحمته بغير المسلمين والحرص على دعوتهم وهدايتهم الأمثلة الآتية

1. عن أنس رضي الله عنه قال (كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له أسلم فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول الحمد لله الذي أنقذه من النار) رواه البخاري (رقم الحديث 1356), ففي هذا الموقف نتلمس مدى رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته على غير المسلمين, وحرصه واهتمامه بدخولهم في الإسلام, بالإضافة إلى حسن التعامل معهم وذلك من خلال عيادة مريضهم, والسؤال عنهم, وترغيبهم بالإسلام, والفرح بإنقاذهم من النار.

([1]) السرجاني, فن التعامل النبوي مع غير المسلمين, ص 154.

2. عن أبي مؤسى الأشعري رضي الله عنه, قال "كان اليهودُ يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون أن يقول لهم يرحمُكُمُ الله. فيقول يهديكم الله ويصلح بالكم "رواه الإمام أحمد في مسنده (رقم الحديث 19586), وفي هذا من الدلائل على جواز الدعوة للكافر بالهداية بخلاف الرحمة يقول المباركفوري "ولا يقول لهم يرحمكم الله, لأن الرحمة مختصة بالمؤمنين, بل يدعو لهم بما يصلح بالهم من الهداية والتوفيق والإيمان"[1].

3. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال "قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم قال اهد ثقيفاً" رواه الترمذي (رقم الحديث 3942).

4. وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء الطفيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم, فقال إن دوساً قد عصت وأبت, فادع الله عليهم, فقال (اللهم اهد دوساً وأت بهم), أخرجه البخاري (رقم الحديث 2937) ومسلم (رقم الحديث 6387), ففي هذا الحديث والذي قبله تظهر الرحمة النبوية بمن خالفه من غير المسلمين, قال العيني "وهذا من خلقه العظيم, ورحمته على العالمين؛ حيث دعا لهم وهم طلبوا الدعاء عليهم" [2], وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم, وجاء بهم أجمعين مهتدين.

5. وعند الإمام مسلم في صححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة, فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره, فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي, قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى

([1]) تحفة الأحوذي, ج8, ص 10.
([2]) عمدة القارئ, ج23, ص 29.

علي, فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره, فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللهم اهد أم أبي هريرة" فخرجتُ مستبشراً بدعوة نبي الله صلى الله عليه وسلم, فلما جئت فصرت إلى الباب, فإذا هو مجاف, فسمعت أمي خشف قدمي, فقالت مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء, قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها, ففتحت الباب, ثم قالت يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله, وأشهد أن محمداً عبده ورسوله, قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, فأتيته وأنا أبكي من الفرح, قال قلت يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة, فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً", صحيح مسلم (رقم الحديث 6346), وهذا الحديث فيه من الرحمة النبوية بمن حوله من أصحابه, وفيه الدعوة لغير المسلمين من أقاربهم بالهداية الإسلام.

6. عن سهل بن سعد رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطي فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى فقال أين علي فقيل يشتكي عينيه فأمر فدعى له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء فقال نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر النعم" رواه البخاري (رقم الحديث 3009), وهنا نجد حرص النبي عليه السلام ورحمته بالكافر, فقد أوصى عليا رضي الله عنه بالتأني أهل خيبر, والبدء بدعوتهم للإسلام, قال ابن حجر "ويؤخذ

منه – أي الحديث – أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله" [1], وهذا من حرصه ورحمته عليه السلام بمخالفيه, لأن دعوته لم تكن لإكراه الناس على الدين, أو قتلهم وقتالهم, بل كانت من أجل اقناعهم بدين الإسلام.

7. عن أبي هريرة رضي الله عنه, قال بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال "انطلقوا إلى يهود" فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدارس, فقام النبي صلى الله عليه وسلم فناداهم "يا معشر يهود, أسلموا تسلموا" فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم, فقال "ذلك أريد" ثم قالها الثانية, فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم, ثم قال الثالثة, فقال "اعلموا أن الأرض لله ورسوله, وإني أريد أن أجليكم, فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه, وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله" رواه البخاري (رقم الحديث 7348), وفي هذا الحديث نجد الحرص النبوي على البلاغ لغير المسلمين (اليهود) ودعوتهم للدين, وقد كرر عليه السلام دعوتهم للإسلام بقوله "يا معشر يهود, أسلموا تسلموا", أشهدهم على أنه بلغهم رسالة ربهم فشهدوا على ذلك, وإن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هذا البلاغ والتأكيد عليه إنما هو نابع من رحمته الفياضة بهم من الوقوع في العذاب الدنيوي المتمثل في الجلاء عن الأرض, والعذاب الأخروي في نار جهنم.

([1]) فتح ا لباري, مجلد 7, ص 597.

- **وصايا النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين في معاملة غير المسلمين (في السلم والحرب)**

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حسن المعاملة للناس أجمعين, منطلقاً من قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)﴾ [سبأ], بما أن رسالته عامة فإن رحمته شملت عموم الناس أيضاً, لذا فقد كان حريصاً على حسن المعاملة, والرحمة في التعامل مع الجميع, وبذلك أوصى أصحابه رضي الله عنهم أجمعين, ولم تقتصر وصاياه صلى الله عليه وسلم في حال السلم فقط بل امتدت حتى في حال الحرب, ومن أبرز وصاياه في حسن معاملة غير المسلمين

1. عن جرير بن عبد الله, قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يرحم الله من لا يرحم الناس" أخرجه البخاري (رقم الحديث 7376), ولفظ الناس هنا عام يشمل المسلم والكافر, والرحمة بالكافر أمر أقرته الشريعة فيما لو لم يكن محارباً للمسلمين في زمن الحرب, أو صدر منه ضرر عظيم على مسلم يوجب القصاص منه.

2. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قال قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع ابنها, فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت إن أمي قدمت وهي راغبة؟ أفأصلها؟ قال "نعم, صلي أمك" رواه البخاري (رقم الحديث 2620 و5978), يقول ابن حجر "وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة, والسفر في زيارة القريب, ونقل عن الخطابي قوله أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل

المسلمة ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً [1]" وهذا كله من رحمة النبي عليه السلام بمن حوله في صلتهم لأرحامهم والبر بهم ما لم يكونوا مقاتلين للإسلام وأهله.

3. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً" رواه البخاري (رقم الحديث 6914), وفي رواية الإمام أحمد "من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً" مسند الإمام أحمد (رقم الحديث 18072), وفي سنن أبي داود "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه و كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجهُ يوم القيامة" سنن أبي داود (رقم الحديث 3052), ففي هذه الأحاديث يوصي النبي صلى الله عليه وسلم بالوفاء بالعهد, وتحريم قتل أهل الذمة, أو انتقاصهم, وتكليفهم فوق طاقاتهم وذبك في حال كونهم مستأمنين معاهدين في بلاد المسلمين, وهذا من عدل الإسلام وسماحته, وفيه دلالة على عظيم أخلاقه صلى الله عليه وسلم ورحمته بالضعفاء والمستأمنين.

4. عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان "إذا أمر أميراً على جيش, أو سرية, أوصاهُ في خاصته بتقوى الله, ومن معه من المسلمين خيراً, ثم قال "اغزوا باسم الله في سبيل الله, قاتلوا من كفر بالله, اغزوا ولا تغلوا, ولا تعدروا, ولا تمثلوا, ولا تقتلوا وليداً" أخرجه مسلم (رقم الحديث 4497).

([1]) فتح الباري, مجلد 5, ص 288.

5. عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال سمعت أبا ذر رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراطُ فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمةً ورحماً" رواه مسلم (رقم الحديث 6440), وهنا يوصى النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر وكانوا في ذلك غالبهم من الأقباط الذين هم على النصرانية (أي غير مسلمين) وجعل لهم ذمة أي حقا وحرمة, ثم بين سبب تلك الذمة بأن لهم الرحم التي كانت من قبل هاجر أم إسماعيل النبي صلى الله عليه وسلم, فقد كانت مصرية, وكذلك من قبل مارية القبطية أم إبراهيم بن النبي محمد صلى الله عليه وسلم, لذا نجد الرحمة وصلة الرحم حاضرة في وصاياه عليه السلام بها وإن كان مستحقها غير مسلم.

6. عن عُقبة بن عامر رضي الله عنه قال ثم لقيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأتهُ فأخذتُ بيده فقلتُ يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال, فقال "يا عُقبة, صل من قطعك, وأعط من حرمك, وأعرض عمن ظلمك" أخرجه الإمام أحمد في مسنده (رقم الحديث 17334), وهذا التوجيه النبوي للصحابي الجليل عقبة بن عامر عام يشمل المسلم وغير المسلم, حيث لم يرد فيه تخصيص بالمسلمين, كما أن المواقف النبوية في معاملة غير المسلمين تؤكد أن هذه الوصية تشمل غير المسلمين؛ كما أن النبي صلى الله عليه وسلم وصل أقاربه من غير المسلمين, وأجاز لأصحابه صلة أقاربهم من غير المسلمين كما في حديث أسماء, وأعطى من حرمه من أهل مكة, وأعرض عمن ظلمه, بل وعفى عنهم, ويتأكد هذا المعنى من خلال الآية التي في سورة

الأعراف في قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) ﴾[الأعراف 199], وأن غير المسلمين من الجاهلين.

- **مواقف نبوية في التعامل مع غير المسلمين**

المعلوم أن رحمته عليه السلام شملت المسلم والكافر, والإنسان والحيوان والجماد, ومما يؤكد عموم رحمته وشمولها للكافر فضلا عن المسلم ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال "قيل يا رسول الله! ادعُ على المشركين؟ قال إني لم أبعث لعاناً, وإنما بعثت رحمةً" رواه مسلم (6556), ففي هذا الحديث يؤكد لنا عليه السلام وضوح دعوته, وأنه رحمة, ومما يعزز هذا الأمر ويؤكده ما ورد عنه عليه السلام من مواقف عملية في حياته والتي منها

1. في الصحيحين عن عائشة أن رهطاً من اليهود دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا السامُ عليك قال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم فقلتُ بل عليكم السامُ واللعنة, قال النبي صلى الله عليه وسلم يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله فقلت يا رسول الله, ألم تسمع ما قالوا؟ قال قد قلت عليكم" أخرجه البخاري (رقم الحديث 6024), ومسلم (رقم الحديث 5621), ففي هذا الحديث يوجه النبي صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة رضي الله عنها – وهو توجيه لعموم الأمة – بالرفق والرحمة حتى مع من يصدر منه الخطأ المقصود الذي لا يوقع الضرر المباشر على الآخر, يقول النووي معلقاً على هذا الحديث "وهذا من عظيم خلقه صلى الله عليه وسلم وكمال حلمه, وفيه حث على الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما ترع حاجة

إلى المخاشنة [1]", والرفق يفيد معنى "لين الجانب بالقول والفعل, والأخذ بالأسهل, وهو ضد العنف [2]", فمن هذا الموقف نتلمس الخلق النبوي الرفيع المستمد من المنهج الرباني في الرفق والرحمة مع غير المسلم حتى مع ما صدر منه من أذى.

2. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأن مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً" رواه البخاري (رقم الحديث 3231).

3. وعن نافع أن عبد الله رضي الله عنه أخبره أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم مقتولةً فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان رواه البخاري (رقم الحديث 3015), ومسلم (رقم الحديث 4522), وهذا يشير إلى موقفه صلى الله عليه وسلم من قتل الضعفاء حيث أنكر الفعل الذي حدث, ونهى عن مثل في المستقبل, بل زاد في

([1]) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج, ج 14, ص 371.
([2]) فتح الباري, مجلد 10, ص 552.

ذلك بالنهي عن قتل الصبيان الذين الضعفاء, وهذا من كمال رحمته عليه السلام بالضعيف الذي لا حيلة له ولا قوة.

4. وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال (غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر فأتت اليهود فشكوا أن الناس قد أسرعوا إلى حظائرهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها) رواه أبو داود (رقم الحديث 3806), وهنا ندرك الموقف النبوي العظيم الذي تتجلى في الأخلاق بكمالها, والرحمة في صورة من صورها, فمع أن الموقف موقف غزو, واليهود قوم بهت, إلا أنهم لما شكوا إلى نبي الرحمة بأن الناس أسرعت لأخذ أموالهم ولم يمهلوهم ويعطوهم فرصة مراجعة النفس في الإسلام أو دفع الجزية, أمر عليه السلام برد أموالهم لهم, وبين الحكم الشرعي في إحلال أموال المعاهدين خصوصاً, والكفار عموماً, وهو أن تكون بحقها كالجزية أو التجارة وغيرها مما أجازته الشريعة الإسلامية.

5. وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجدٍ فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثالٍ فربطوه بساريةٍ من سواري المسجد فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما عندك يا ثمامة فقال عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان الغد ثم قال له ما عندك يا ثمامة قال ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد فقال ما عندك يا ثمامة فقال عندي ما قلت لك فقال أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نجل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا

محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلي والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم "رواه البخاري (رقم الحديث 4372), ففي هذا الموقف نجد العفو النبوي النابع من الرحمة التي ملأت قلبه صلى الله عليه وسلم, لا سيما وأن ثمامة استعطفه بقوله "إن تنعم تنعم على شاكر", فكان لهذا الموقف نتيجة عظيمة هي أحب لقلب النبي صلى الله عليه وسلم من غيرها؛ وهي دخول ثمامة في الإسلام, وما كان ذلك ليحدث لولا الملاطفة والرحمة النبوية التي وجدها ثمامة في خلق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

6. وأورد ابن حجر رواية من زيادة ابن هشام في سيرته تبين لنا موقفا نبوياً آخر يفيض بالرحمة والرأفة بغير المسلمين, وذلك أن ثمامة توعد كفار قريش بقوله "ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطةٍ حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم", فزاد ابن هشام في روايته بأنه – أي ثمامة – "ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً, فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه

وسلم إنك تأمُر بصلة الرحم, فكتب إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل إليهم" [1].وهذا الموقف يؤكد الرحمة النبوية بغير المسلمين خاصة إذا ناشدوه الرحم والرحمة.

7. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما, أخبره أنهُ غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجدٍ, فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه, فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه, فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناسُ في العضاه, يستظلون بالشجر, ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرةٍ فعلق بها سيفهُ. قال جابر فنمنا نومةً, ثم إذا رسول صلى الله عليه وسلم يدعونا فجئناهُ, فإذا عندهُ أعرابي جالس, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم, فاستيقظت وهو في يده صلتاً, فقال لي من يمنعك مني؟ قلت الله, فها هو ذا جالس" ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم" رواه البخاري (رقم الحديث 2910), وهنا تظهر صورة أخرى من صور التسامح والرحمة النبوية, فأن الرجل الكافر أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يظن أن متمكن من ذلك, ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عفى عنه عندما تمكن من قتله, قال ابن حجر "فمن عليه لشدة رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام, ولم يؤخذ بما صنع, بل عفا عنه" [2], وصدقت السيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت "وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها) رواه البخاري (رقم الحديث 3560), ومسلم (رقم الحديث 5999).

([1]) فتح الباري, مجلد 8, ص 111.

([2]) فتح الباري, مجلد 7, ص 534.

8. وروى ابن أبي ليلى, أن قيس بن سعدٍ, وسهل بن حنيفٍ, كانا بالقادسية فمرت بهما جنازة فقاما, فقيل لهما إنها من أهل الأرض (كافر من أهل تلك الأرض), فقالا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة, فقام فقيل إنه يهودي, فقال "أليست نفساً" رواه مسلم (رقم الحديث 2222), يظهر لنا من هذا الموقف أن رحمته عليه السلام لم تقف عند الأحياء من غير المسلمين بل حتى الأموات شملتهم هذه الرحمة, بل "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف زرع في نفوس المسلمين التقدير والاحترام والرحمة لكل نفس إنسانية, وذلك على الإطلاق؛ لإنه فعل ذلك وأمر به, حتى بعد علمه أنه يهودي" [1].

9. وفي يوم فتح مكة والكتائب تستعد لدخول مكة خرج أبو سفيان يستطلع الأمر, فمرت به الكتائب ومنها كتبة الأنصار وقائدها سعد بن عبادة, "فقال سعد بن عبادة يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة فقال أبو سفيان يا عباس حبذا يوم الذمار ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ورايةُ النبي صلى الله عليه وسلم مع الزبير بن العوام فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان قال ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة قال ما قال؟, قال كذا وكذا فقال كذب سعد, ولكن هذا يوم يعظمُ الله فيه الكعبة ويوم تُكسى فيه الكعبةُ" رواه البخاري (رقم الحديث 4280), وذكر ابن حجر رواية عن الأموي في المغازي "أن أبا سفيان قال للنبي صلى الله عليه وسلم لما حاذاهُ أمرت بقتل قومك؟ قال لا, فذكر له ما قاله سعد بن عبادة, ثم ناشده الله والرحم, فقال يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة, اليوم يعز الله قريشاً, وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه

([1]) الرحمة في حياة الرسول, ص 204.

قيس, وعند ابن عساكر عن جابر قال لما قال سعد بن عبادة ذلك عارضت امرأة من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا نبي الهدى إليك لجاحيّ قريش ولات حين لجاءٍ حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء إن سعداً يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء فلما سمع هذا الشعر دخلتهُ رأفة لهم ورحمة, فأمر بالراية فأخذت من سعد ودفعت إلى ابنه قيس [1]" وفي هذا الموقف تظهر الرحمة النبوية وغلبتها في طبعه صلى الله عليه وسلم؛ إذ لو لم تكن كذلك لأنتقم من قريش وكفارها, ولأستحل دماءهم وأموالهم, لأنهم آذوه وطردوه, وكذبوه وحاولوا قتله, وحاربوه مراراً وقتلوا من خيار أصحابه وأقاربه, وعلى رأس من قتلوه ومثلوا به عمه حمزة بن عبد المطلب, ومع ذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كذب سعد) أي أخطأ في مقالته, ثم أردف ذلك بقوله "اليوم يوم المرحمة, اليوم يعز الله قريشاً" حيث داخلته الرأفة والرحمة كما ذكر ابن حجر في روايته, فما أعظم هذا النبي؟!! وصدق الله سبحانه وتعالى عندما مدحه فقال عنه ﴿ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

- **آثار الرحمة النبوية بغير المسلمين**

إن المتأمل في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحدثت عن الرحمة , وكذلك المتأمل لمواقف النبي صلى الله عليه وسلم التي فاضت بالرحمة في تعاملاته مع مخالفيه ليجد ثمار عظيمة يانعة, تظهر في حلل متنوع وثمار تؤتي أكلها ولو بعد حين, فمن تلك الثمار والآثار المترتبة على الرحمة

([1]) فتح الباري, مجلد 8, ص 12.

ساهمت في كسب قلوب المدعوين واستمالتهم للإسلام, يقول الله سبحانه وتعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران 159], ففي هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أثرا من آثار رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بمن حوله وهو من أعظم الأثار وهو بقاؤهم حوله, يقول صاحب روح البيان في تفسير القرآن "فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله سبحانه وتعالى وهي ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو ولو لم تكن كذلك بل كنت فظاً جافياً في المعاشرة قولاً وفعلاً غليظ القلب.. لانفضوا من حولك أي لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك وتردوا في مهاوى الردى [1]".

كما أنها سبب للتعرض لرحمة الله, والدخول في رحمته وعفوه؛ جزاء لرحمتهم بخلقه, فقد ورد في حديث أسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وإنما يرحمُ اللهُ من عباده الرُّحماء" أخرجه البخاري (رقم الحديث 7448), يدل هذا الحديث بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله, وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله, فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله, التي من آثارها خيرات الدنيا, وخيرات الآخرة, وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله, فمتى ما أراد أن يستبقي رحمة الله ويستزيد منها, فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها, والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم, ومما يؤكد ما ورد سابقاً ما صح عنه عليه السلام من حديث عبد الله بن عمرو المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء" رواه أبو داود في سننه (رقم

(1) روح البيان في تفسير القرآن, ج2, ص 120.

الحديث 4941), فرحمة الله قريبة من المحسنين, كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف 56], والمحسنون هم المحسنون في عبادة الله, والمحسنون إلى عباد الله.

ومن ثمار الرحمة بغير المسلمين التي يمكن إدراكها من مواقف معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لغير المسلمين غرس الطمأنينة والسكينة في نفوسهم, والإسهام في دخولهم للإسلام, وانتشار الإسلام, وقد ظهر هذا من موقف النبي صلى الله عليه وسلم مع الغلام اليهودي الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه – سبق تخريجه – [1], فقد حيث أسلم اليهودي قبل موته, وكذلك من خلال موقفه عليه السلام مع ثمامة بن أثال حيث قال رضي الله عنه "فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي والله ما كان من دينٍ أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلي" [2] وذلك بعد أن منَّ النبي صلى الله عليه وسلم وعفا عنه وفك أسره, وكذلك المواقف التي سبق ذكرها عند الحديث عن حرص النبي عليه السلام على دعوة وهداية غير المسلمين [3].

ومن ثمارها أنها أسهمت في محبة الناس للنبي عليه الصلاة والسلام, وأكدت على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ونبل أخلاقه وعظيم صفاته, وذلك واضح من الموقف السابق لثمامة بن أثار رضي الله عنه, ومن المواقف التي تؤكد على هذه الثمرة قول صفوان بن أمية يوم حنين, بعدما رأى من أخلاق النبي عليه السلام وحسن تعامله معه, ورحمته به بعد فتح مكة وفي يوم حنين, من العفو عنه, وتأليف قلبه بما أعطاه من غنائم وأموال مع أنه لم يكن أسلم حتى تلك اللحظة, فجميع

([1]) سبق تخريجه.

([2]) سبق تخريجه.

([3]) سبق تخريجه.

تلك المواقف أثرت في نفس صفوان, فقال "والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني, وإنه لأبغض الناس إلي, فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي" أخرجه مسلم (رقم الحديث 5976), وصدق الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)﴾ [فصلت], فالرحمة والإحسان سبيل إلى فتح القلوب واستمالتها نحو الأمر المطلوب.

المبحث الثالث

الشدة النبوية في معاملة غير المسلمين (نماذج وأسباب)

مما سبق ذكره من مواقف ووصايا للنبي عليه السلام في رحمة غير المسلمين ندرك تمام الإدراك سعة الرحمة النبوية, وهو القائل عن نفسه (وإنما بُعثتُ رحمةً), ومع هذا قد نجد بعض المواطن التي تظهر فيها الغلظة والشدة النبوية على غير المسلمين, وقد حاول أعداء الإسلام النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحمته, ووصفه بالشدة والغلظة؛ مستغلين بعض الشواهد المروية في ذلك لتحقيق أغراضهم, لكن المتأمل في المواقف التي ظهرت فيها شدة النبي عليه السلام على مخالفيه يجدها مسببة بأسباب؛ وهذه الأسباب تعد مخالفة للشريعة الإسلامية من جهة, ومن جهة أخرى نجد فيها التعدي الكبير على حقوق الأخرين, كما أن بعضها يسهم في انتشار الفوضى والظلم في المجتمع الإسلامي, وكل هذه الأمور تحتاج إلى مواقف صارمة مع من صدرت منهم؛ لاسيما إن كان الأمر يتعلق بحقوق الغير في المجتمع, وأن الأمر يكون من الشخص لأكثر من مرة, وفيما يلي بعضاً من هذه الأسباب

1. الكفر والنفاق المصاحب للعداء الظاهر للإسلام ومقاتلة المسلمين

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)﴾ [التحريم], والغلظة هنا تقتضي الشدة في المعاملة, وسبب هذا الأمر الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم هو عداوة الكفار لدين الإسلام, وإصرارهم على قتال المسلمين, ومما يؤكد هذا قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة 190 – 191], فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ فيه "تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله, أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم, كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة 36], ولهذا قال في الآية﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾, أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم, كما همتهم منبعثة على قتالكم, وعلى إخراجهم من بلادهم, التي أحرجوكم منها قصاصاً [1]".

ولكن هذا التوجيه ينبغي أن لا يقرأ بمعزل عن غيره من التوجيهات الربانية التي تدعوا إلى حسن المعاملة لغير المسلم, كما أن الفهم الصحيح لمعنى الآية ينبغي أن يكون حاضرا في ذهن التالي لها والسامع, فالغلظة والجهاد المطلوبان في هذه الآية يقصد بها "حيث اقتضت الحاجة إليهما [2]", مما يعني أن مجاهدتهم وإظهار الغلظة لهم تكون في حال تسببوا في سبب يقتضي ذلك, ويمكن التماس هذا الفهم من قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي

(1) ابن كثير, تفسير القرآن العظيم, ج1, ص 224.
(2) السعدي, تيسير الكريم المنان, ص 338.

الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)﴾ [الممتحنة 8 – 9], فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية أباح للمسلمين البر وحسن المعاملة لغير المسلم بشروط؛ بينتها الآية وهي أنهم لم يقاتلوكم في دينكم, ولم يساهموا في إخراجكم من دياركم ظلماً وعدواناً, وإنما النهي الوارد في الآيات السابقة من تولي الكفار يراد بهم كما في الآية هم الكفار الذين قاتلوكم في دينكم, وساهموا في إخراجكم من دياركم, بالتالي هم الذين يحرم توليهم, ويباح قتالهم لأنهم معتدون, ويجب الغلظة في معاملتهم (قتالهم).

2. نقض العهد والميثاق مع المسلمين

يقول الله سبحانه وتعالى موجها نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15)﴾ [التوبة 12 – 15], فهذه الآيات تفيد أحد أسباب جواز قتال الكفار والغلظة عليهم وهو نقض العهد وخيانة العهد, وهنا يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وعموم المؤمنين بقتال أئمة الكفر الذين ينقضون الميثاق والعهد, ويبشر سبحانه وتعالى بأنه سيعذب هؤلاء الكفرة بأيدي المؤمنين, ويخزهم, وينصر المؤمنين عليهم ويشف صدورهم.

وقد تمثل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع من عاهد من غير المسلمين, ومن أبرز تلك المواقف ما حدث لبني قريظة عندما خانوا العهد ونقضوا الميثاق الذي تم توقيعه مع

النبي صلى الله عليه وسلم, ولم يكتفوا بخيانة العهد, بل زادوا على ذلك بالتآمر الصريح مع العدو الغازي للمدينة وللمسلمين, وأوقعوا المسلمين بين فكي رحى طرفها من جانب الغزاة المعتدين (الأحزاب) والآخر اليهود الخائنين (يهود بني قريظة), وزادوا على ذلك بنشر الشائعات في صفوف المسلمين, وتواطؤهم مع المنافقين في المدينة لتسهيل دخول الأحزاب فيها, وفي المجمل فإن خلاصة الجرائم التي ارتكبت من قبلهم في هذه الغزوة هي خيانة العهد والميثاق, وتسهيل دخول المعتدين للمدينة المنورة, والتجسس لصالح المعتدين على المسلمين, وكذلك نشر الرعب والوهن والشائعات في مجتمع المسلمين, ومن المعلوم أن كل جريمة هذه الجرائم في حد ذاتها كافية للحكم على صاحبها بالموت حسب كل الأعراف والقوانين الدولية, فكان حكم الإسلام فيهم مؤيدا للحكم الذي صدر من سعد بن معاذ رضي الله عنه, وذلك بقتل المقاتل منهم, وسبي الذرية والمال عنهم لصالح المسلمين.

وكذلك هو الحال عندما نقض أهل مكة الصلح الذي تم بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم, وذلك عندما عاونوا قبيلة بكر الموالية لهم على قبيلة خزاعة الموالية للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين, فقد كان من بنود الاتفاقية أن من شاء من القبائل الدخول في حلف قريش فله ذلك, ومن شاء من القبائل الدخول في حلف المسلمين فله ذلك, وكان من البنود أيضا توقف الحرب بينهم عشر سنوات, ولا يجوز لأي من الفريقين الإعانة في القتال لمن في حلفهم ضد أي من أحلاف الفريق الآخر, وبموجب هذه الإعانة فإن قريش قد خالفت شروط الصلح, فنبذ إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلغاء الصلح, امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى له في قوله ﴿وَإِمَّا

تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) ﴾[الأنفال], وكان من وراء هذا النقض للصلح فتح مكة الذي سماه الله سبحانه وتعالى بالفتح المبين كما في سورة الفتح.

3. انتهاك حرمات الله

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت(ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً, فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه, وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها) رواه البخاري (رقم الحديث 3560), ومسلم (رقم الحديث 5999), ومحل الشاهد هو قول السيدة عائشة (إلا أن تنتهك حرمةُ الله فينتقم لله بها), "ومعناه إذا انتهكت حرمة الله انتصر لله سبحانه وتعالى, وانتقم ممن ارتكب ذلك [1]", وإن مما لا شك فيه أن ضياع الحرمات يعني دمار المجتمعات, والفساد في الأرض سبب للهلاك, قال الله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)﴾ [الإسراء 16]؛ فمن حرص النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على بقاء المجتمعات ورحمته بأهلها من نزول العذاب بهم كان يغضب شديد الغضب عند انتهاك الحرمات, ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ويؤكد ذلك حديث المرأة المخزومية التي سرقت, فجاء أسامة بن زيد رضي الله عنهما ليشفع فيها بعد أن طلب منه أهلها ذلك؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم, وقال له معلماً ومؤدباً "أتشفع في حد من حدود الله, ثم قام فاختطب, ثم قال إنما أهلك الذين قبلكم, أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه, وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد, وايم الله لو أن فاطمة بنت

([1]) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج, ج 15, ص 83.

محمدٍ سرقت لقطعت يدها" رواه البخاري (رقم الحديث 3475), فكأنه يقول له لا يا أسامة حفظ الحدود أمر مهم لا ينبغي تعديه, والشفاعة فيه غير جائزة متى وصلت للحاكم, بل يجب إقامة الحدود لضمان عدم الهلاك, وبين له ولجميع المسلمين أن جميع الناس في الحدود متساوون.

4. الأذية لله والرسول والمؤمنين

قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب 57 – 58], فالآية تشير إلى أن أذية الله ورسوله, وأذية المؤمنين سبب من أسباب اللعن والطرد الرباني من الرحمة في الدنيا والآخرة, بالإضافة إلى أنها من البهتان والإثم المبين, لذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان شديداً على من آذى الله ورسوله والمؤمنين سواء في قوله أو في فعله, ومن الشواهد التي تؤكد هذا ما صح عنه عليه السلام من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله", فقال محمد بن مسلمة يا رسول الله, أتحب أن أقتله؟ قال "نعم" أخرجه البخاري (رقم الحديث 2510 و3031) ومسلم (رقم الحديث4640), والسبب في هذا الأمر النبوي كما نقل الإمام النووي عن المازري قال "إنما قتله كذلك لأنه نقض عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهجاه وسبه, وكان عاهده أن لا يعين عليه أحداً, ثم جاء مع أهل الحرب معيناً عليه [1]", فكعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين, وإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم, وتظاهراً بالدعوة إلى حربه.

([1]) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج, ج12, ص 371.

وكعب بن الأشرف كان شاعراً من اليهود, ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين, وقتل صناديد قريش في بدر قال أحق هذا؟ ولما تأكد لديه الخبر, انبعث عدو الله يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين, ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم, ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش, فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي, وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على أصحاب القليب من قتلى المشركين, يثير بذلك حفائظهم, ويذكي حقدهم على النبي صلى الله عليه وسلم, ويدعوهم إلى حربه, ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال, وأخذ يشبب في أشعاره بنساء الصحابة, ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء, وحينئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله" [1].

5. سب النبي صلى الله عليه وسلم

وهذا الأمر قريب من السبب السابق, ولكنه يختص بمن سب النبي صلى الله عليه وسلم, وانتقص منه, فسب النبي صلى الله عليه وسلم إن صدر من مسلم فهو كفر وردة, وإن صدر من غير مسلم فهو سبب موجب لقتله, فهو "من الأمور الناقضة للعهود, المانعة من الأمان [2]", وقد نقل الشوكاني كلاماً لأهل العلم فيمن اعتدى بالسب للنبي صلى الله عليه وسلم, فنقل عن القاضي عياض قوله "حكم الشرع أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم كفر وقتل [3]", كما نقل عن ابن المنذر قوله "الاتفاق على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم صريحاً وجب قتله [4]", وذكر بعض العلماء العلة في سبب كون أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم يجب قتله بكل حال, وهو

([1]) الرحيق المختوم, ص 283 – 284.
([2]) محمد جاد, التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي, ص 187.
([3]) الشوكاني, نيل الأوطار, ج1, ص 360.
([4]) الشوكاني, نيل الأوطار, ج7, ص 224.

أن سبه صلى الله عليه وسلم يتعلق به حقان؛ حق لله, وحق لآدمي (النبي عليه السلام), فأما حق الله لأن فيه قدح في رسالته ورسوله وكتابه ودينه الذي ارتضاه لعباده, وأما حق الآدمي (حق النبي صلى الله عليه وسلم) فلأنه أدخل المعرة على النبي صلى الله عليه وسلم بهذا السب, وأناله بذلك غضاضة وعارا, وقد ورد في السنة النبوية أنه عليه السلام أمر بقتل من سبه كما في قصة كعب بن الأشرف, فإن من بين الأسباب التي اقترفها سبه للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن الشواهد على قتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود في سننه عن علي رضي الله عنه, "أن يهوديةً كانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه, فخنقها رجل حتى ماتت, فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم دمها" (رقم الحديث 4362), وكذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما, أن أعمى كانت له أم ولدٍ تشتم النبي صلى الله عليه وسلم, وتقع فيه, فينهاها, فلا تنتهي, ويزجرها, فلا تنزجر, قال فلما كانت ذات ليلةٍ, جعلت تقع في النبي صلى الله عليه وسلم, وتشتمه, فأخذ المغول فوضعه في بطنها, واتكأ عليها فقتلها, فوقع بين رجليها طفل, فلطخت ما هناك بالدم, فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم, فجمع الناس فقال "أنشد الله رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام", فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتزلزل حتى قعد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم, فقال يا رسول الله, أنا صاحبها, كانت تشتمك, وتقع فيك, فأنهاها فلا تنتهي, وأزجرها, فلا تنزجر, ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين, وكانت بي رفيقةً, فلما كان البارحة جعلت تشتمك, وتقع فيك, فأخذت المغول فوضعته في بطنها, واتكأت عليها حتى قتلتها, فقال النبي صلى الله عليه وسلم "ألا اشهدوا أن دمها هدر" (رقم الحديث 4361).

6. الردة عن الدين وخيانة المسلمين

عن مصعب بن سعد, عن أبيه قال لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس, إلا أربعة نفر وامرأتين وقال "اقتلوهم, وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة, عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطلٍ ومقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح" رواه النسائي (رقم الحديث 4067), ولعل الأسباب التي دفعت إلى هذا الحكم النبوي الذي يظهر فيه الشدة والغلظة على هؤلاء النفر ما صدر عنهم من أفعال وأقوال, أما عكرمة بن أبي جهل, فإنه إنما أمر بقتله, لأنه كان هو وأبوه أشد الناس أذية للنبي صلى الله عليه وسلم, وكان أشد الناس على المسلمين, وأما عبد الله بن خطل كان اسمه عبد العزى, وقد أسلم فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله, وهاجر إلى المدينة, وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعياً (أي يجمع الصدقات والزكاة), وبعث معه رجلاً من خزاعة, وكان يصنع له طعامه ويخدمه, فنزلا في مجمع, وهو المكان الذي تجتمع الأعراب يؤدون فيه الصدقة, فأمره أن يصنع له طعاماً, ونام نصف النهار, واستيقظ والخزاعي نائم, ولم يصنع له شيئاً, فعدى عليه فضربه فقتله, وارتد عن الإسلام, وساق ما أخذ من الصدقة, وهرب إلى مكة.

وأما مقيس بن صبابة فقد أسلم, ثم أتى على رجل من الأنصار فقتله, وكان الأنصاري قتل أخاه هشاماً خطأً في غزوة ذي قرد, ظنه من العدو, فجاء مقيس, فأخذ الدية, ثم قتل الانصاري, ثم ارتد, وأما عبد الله بن أبي السرح لأنه كان أسلم قبل الفتح, وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي, فارتدّ وهرب إلى مكة.

والملاحظ مما سبق من أفعال هؤلاء النفر أنها تستحق القتل لما فيها من أذية عظيمة, فعكرمة آذى رسول صلى الله عليه وسلم, وآذى المسلمين بالقول والفعل والتحريض, أما عبد الله بن خطل, ومقيس بن صبابة فاستحقاقهما القتل سببه عدة أمور منها الارتداد عن دين الإسلام بعد الدخول فيه, والقتل العمد غدراً بالمسلم, والخيانة للأمانة وغيرها, أما عبد الله بن أبي السرح فلأنه ارتد عن الإسلام, وخان الأمانة في كتابة الوحي, بالإضافة لأذية النبي عليه السلام بأقواله, مع العلم بأنه لم يقتل من هؤلاء الأربعة إلا عبد الله بن خطل, ومقيس بن صبابة, أما عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي السرح فقد أسلما, وقاتلا فيما بعد في صفوف المسلمين.

7. الحرابة والإفساد في الأرض

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رهطاً من عكل, ثمانيةً, قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم, فاجتووا المدينة, فقالوا يا رسول الله ابغنا رسلاً, قال "ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بالذود", فانطلقوا, فشربوا من أبوالها وألبانها, حتى صحوا وسمنوا, وقتلوا الراعي واستاقوا الذود, وكفروا بعد إسلامهم, فأتى الصريخ النبي صلى الله عليه وسلم, فبعث الطلب, فما ترجل النهار حتى أتي بهم, فقطع أيديهم وأرجلهم, ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها, وطرحهم بالحرة, يستسقون فما يسقون, حتى ماتوا" رواه البخاري (رقم الحديث 6802), "قال أبو قلابة قتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم, وسعوا في الأرض فساداً [1]", وجاء في رواية الإمام مسلم عن أنسٍ رضي الله عنه قال "إنما سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين أولئك, لأنهم سملوا أعين الرعاء" صحيح مسلم (رقم الحديث 4334), وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث في باب المحاربين من

([1]) فتح الباري, مجلد 6, ص 185.

أهل الكفر والردة, وكذلك أورده الإمام مسلم في باب حكم المحاربين والمرتدين, وذلك في إشارة منهما إلى حكم الحرابة والإفساد في الأرض, وقد ظهرت الشدة في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع القوم حيث قطع أيديهم وأرجلهم, وسمل أعينهم بمسامير, ثم تركهم في الحرة حتى ماتوا؛ لأنهم ارتكبوا عدة جرائم منها الردة عن الإسلام, والحرابة للمسلمين من خلال ما قاموا به من إفساد في الأرض وقتل وتمثيل بالرعاة, فاستحقوا هذه العقوبات جزاء لما صنعوا, وقد نص القرآن الكريم على عقوبة الحرابة والردة, قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)﴾ [المائدة 33].

8. القصاص في الحدود

عن أنس بن مالك, "أن جاريةً وجد رأسها قد رض بين حجرين, فسألوها من صنع هذا بك؟ فلان؟ فلان؟ حتى ذكروا يهودياً, فأومت برأسها, فأخذ اليهودي فأقر, فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرض رأسه بالحجارة" رواه مسلم (رقم الحديث 4341), وفي رواية أخرى له "فقال لها "أقتلك فلان؟" فأشارت برأسها أن لا, ثم قال لها الثانية, فأشارت برأسها أن لا, ثم سألها الثالثة, فقالت نعم, وأشارت برأسها, "فقلته رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حجرين" صحيح مسلم (رقم الحديث 4337), فهنا اقتص النبي صلى الله عليه وسلم من اليهودي الذي رض رأس الجارية بحجر بنفس الطريقة, ولم يتهاون معه, لأن الأمر اقتضى القصاص, والقصاص تم بالمثل مصداقا لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة 178], وقوله تعالى﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل 126].

9. تكرار الخطأ بمحاربة الله ورسوله وقد سبق العفو عنه

روى البيهقي في سننه عن محمد بن إسحاق قال كان أبو عزة الجمحي أسر يوم بدر فقال للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد, إنني ذو بنات وحاجةٍ, وليس بمكة أحد يفديني, وقد عرفت حاجتي, فحقن النبي صلى الله عليه وسلم دمه وأعتقه وخلى سبيله, فعاهده أن لا يعين عليه بيدٍ ولا لسان, وامتدح النبي صلى الله عليه وسلم حين عفا عنه. فذكر الشعر, ثم ذكر قصته مع صفوان بن أمية الجمحي, وإشارة صفوان عليه بالخروج معه في حرب أحدٍ وتكفله بناته, وإنه لم يزل به حتى أطاعه, فخرج في الأحابيش من بني كنانة, قال فأسر أبو عزة يوم أحدٍ, فلما أتي به النبي صلى الله عليه وسلم قال أنعم علي, خل سبيلي, فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "لا يتحدث أهل مكة أنك لعبت بمحمدٍ مرتين", فأمر بقتله" السنن الكبرى (رقم الحديث 12841), وهنا لم يتسامح النبي عليه السلام مع أبي عزة لسببن أولهما أنه لم يفي بعهده الذ قطعه على نفسه عندما عفى عنه النبي صلى الله عليه وسلم أول مرة, والسبب الثاني ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله "لا يتحدث أهل مكة أنك لعبت بمحمدٍ مرتين".

10. المؤامرة على الإسلام والمسلمين والتحريض على قتال المسلمين

ومثال ذلك ما بدر من أهل خيبر من مكر ودسائس ضد الإسلام والمسلمين, خاصة بعد نزول بني النضير بينهم, فخيبر هي وكرة الدس والتآمر, ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب, فهم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين, وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة, ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين, وبغطفان وأعراب البادية, وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال, فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة, حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي صلى الله

عليه وسلم, وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية, وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين, مثل سلام بن أبي الحقيق, وأسير بن زارم, ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك. وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب, لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم – وهي قريش – كانت مجابهة للمسلمين, فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين, واقترب لهم يوم الحساب, وبعد المعاهدة التي تمت بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش في الحديبية, تفرغ الرسول عليه السلام لقتالهم, قال ابن إسحاق أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم, ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر, وبعد عدة مناوشات وحصار لها ولأهلها المتحصنون في الحصون, بدأت المفاوضات صالحهم على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة, وترك الذرية لهم, ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم, ويخلون بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء – أي الذهب والفضة – والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان, ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة الغنائم, قالوا له يا محمد, دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها, ونقوم عليها, فنحن أعلم بها منكم, فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع, ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرهم. وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم [1], فالسبب في استحقاق أموال أهل خيبر, وإخراجهم منها مقابل الأمن على أنفسهم, وذرياتهم كان نتيجة ما صدر من أهل خيبر من مؤامرات ضد الإسلام والمسلمين.

([1]) أنظر: الرحيق المختوم, ص 430 – 443.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم الصالحات بفضله وكرمه, والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهداية للخلق أجمعين... وبعد

فإن من خلال هذا البحث – الذي اعانني الله بفضله ومنه على اتمامه – يمكننا أن نؤكد على أن الرحمة خلق من أخلاق الإسلام والمسلمين, وصفة من صفات الله رب العالمين؛ فهو سبحانه الرحمن الرحيم, وهو كما قال عن نفسه ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22)﴾ [الحشر], وهي أيضاً سمة من سمات النبي محمد صلى الله عليه وسلم, وسجية من سجاياه, بل هو كله رحمة مرسلة؛ قال الله عنه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)﴾ [الأنبياء], ولم تقتصر رحمته على المؤمنين, بل شملت غير المسلمين, كما أظهر البحث النتائج الآتية

- توجيه الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام في معاملة غير المسلمين بما يقتضيه واجب الدعوة, وصفة الرحمة, وذلك من خلال دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة, والعفو والصفح عن الجاهلين منهم, وعدم ازهاق نفسه في سبيل هدايتهم؛ لأن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى وحده, كما أباح له وللمسلمين البر والقسط بغير المسلمين غير المحاربين.
- حرصُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على دعوة وهداية غير المسلمين نابع من رحمته بهم, وقد ظهر هذا الحرص من خلال اهتمامه الشديد بدعوتهم للإسلام, والدعوة لهم بالهداية, ورفض الدعوة عليهم, ومن خلال الوصية بحسن معاملتهم, والبر بهم, وصلة ذوي القربي منهم إن لم

يكونوا مقاتلين, والنهي عن قتل النساء والصبيان في حال الحرب معهم, كما نهم عن الاستيلاء على أموالهم إلا بحق شرعي, وأظهرت مواقفه معهم الكثير من التسامح والعفو, والتلطف بهم, وحسن الخلق في معاملتهم – ما لم يكن في ذلك انتهاك لحرمات الله وحقوق الآخرين –.

- ظهرت الكثير من الآثار المترتبة على رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بغير المسلمين من أبرزها دخولهم في الإسلام, وانتشاره بينهم, وزيادة محبته صلى الله عليه وسلم في قلوب أعدائه.
- أظهرت النتائج أن شدة النبي عليه السلام مع بعض خصومه لها أسباب, من أهمها الكفر والنفاق المصاحب للعداء والقتال, ونقض العهد والميثاق مع المسلمين, وانتهاك حرمات الله, والأذية لله والرسول والمؤمنين, وسب النبي صلى الله عليه وسلم, وكذلك الردة عن الدين وخيانة المسلمين, والحرابة والإفساد في الأرض, ومن بين الأسباب أيضاً القصاص في الحدود, وتكرار الخطأ في محاربة المسلمين بعد العفو في المرة الأولى, وأيضاً المؤامرة على الإسلام والمسلمين, والتحريض على قتال المسلمين.

وفي ضوء ذلك فإن الباحث يوصي بأهمية إبراز مظاهر الرحمة بغير المسلمين التي تضمنتها نصوص القرآن, وكذلك إبراز وصايا النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته التي تؤكد على حسن المعاملة والرحمة مع غير المسلمين, وتأكيدها من خلال مواقفه صلى الله عليه وسلم ومعاملته لغير المسلمين, كما يوصي الباحث الرد على مزاعم أعداء الإسلام بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان شديداً في تعامله مع مخالفيه, واستشهادهم ببعض النصوص التي تحقق أغراضهم, وأن يكون الرد من خلال بيان أسباب الشدة في تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض غير المسلمين.

فهرس المصادر والمراجع

1. ابن تيمية, أحمد بن عبد الحليم (1411هـ). درء تعارض العقل والنقل. تحقيق محمد رشاد سالم. ط2, المملكة العربية السعودية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

2. ابن منظور, محمد بن مكرم (1414هـ). لسان العرب. ط 3, بيروت دار صادر.

3. أبو حيان, محمد بن يوسف بن حيان (2001). تفسير البحر المحيط. تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض, بيروت دار الكتب العلمية.

4. الإمام أحمد بن حنبل (1421هـ). مسند الإمام أحمد. تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون. إشراف الدكتور عبد المحسن التركي, بيروت مؤسسة الرسالة.

5. البخاري, محمد بن إسماعيل (1422هـ). الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري). تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي, بيروت دار طوق النجاة.

6. البروسوي, إسماعيل حقي بن مصطفى الحنفي (1424هـ). روح البيان في تفسير القرآن. ضبطه وصححه وخرج آياته عبد اللطيف حسن عبد الرحمن. بيروت دار الكتب العلمية.

7. البيهقي, أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (1424هـ). السنن الكبرى. تحقيق محمد عبد القادر عطا. ط3, بيروت دار الكتب العلمية.

8. الترمذي, أبو عيسى محمد بن عيسى (1419هـ). سنن الترمذي. تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبي. القاهرة دار الحديث.

9. الجرجاني, علي بن محمد (1403). كتاب التعريفات. بيروت دار الكتب العلمية.

10. الحسيني, أيوب بن موسى (د. ت). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. تحقيق عدنان درويش – محمد المصري, بيروت مؤسسة الرسالة.

11. الزمخشري, محمود بن عمر (2006). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت دار الكتاب العربي.

12. السجستاني, أبو داود سليمان بن الأشعث (د. ت). سنن أبي داود. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد, بيروت المكتبة العصرية.

13. السرجاني, راغب (د. ت). الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم. بحث مقدم لجائزة معالي السيد حسن عباس الشربتلى, بإشراف رابطة العالم الإسلامي.

14. السعدي, عبد الرحمن بن ناصر (1420هـ). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق. بيروت مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

15. الشنقيطي, محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي (2003). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. التتمة من عمل الشيخ عطية محمد سالم. ط2, بيروت دار الكتب العلمية.

16. الشوكاني, محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (1413هـ). نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار. تحقيق عصام الدين الصبابطي. مصر دار الحديث.

17. الطبري, أبو جعفر محمد بن جرير (2000). جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري). تحقيق أحمد محمد شاكر. بيروت مؤسسة الرسالة.

18. السرجاني, راغب (2010). فن التعامل النبوي مع غير المسلمين. القاهرة دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة.

19. العسقلاني, أحمد بن علي بن حجر (1418هـ). فتح الباري شرح صحيح البخاري. الرياض مكتبة دار السلام, دمشق مكتبة دار الفيحاء.

20. العفيفي, طه عبد الله (1995). من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم الخلقية والخُلقية. الدار المصرية اللبنانية.

21. العيني, أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (1421هـ). عمدة القاري شرح صحيح البخاري. ضبطه وصححه عبد الله محمود محمد عمر. بيروت دار الكتب العلمية.

22. الفيروز أبادي, محمد بن يعقوب (1995). القاموس المحيط. بيروت دار الكتب العلمية.

23. المباركفوري, صفي الرحمن (1415هـ), الرحيق المختوم. ط3, طنطا دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية.

24. المباركفوري, محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (1410هـ). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. بيروت دار الكتب العلمية.

25. نخبة من العلماء (2009). التفسير الميسر. بإشراف الشيخ صالح ابن عبد العزي آل الشيخ, المدينة المنورة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

26. نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن (2010). التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم. الشارقة كلية الدراسات العليا والبحث العلمي, جامعة الشارقة.

27. النسائي, أحمد بن شعيب بن علي (1406هـ). المجتبي من السنن (السنن الصغرى للنسائي). تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. ط2, حلب مكتبة المطبوعات الإسلامية.

28. محمد جاد, ناصر محمدي (1430هـ). التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي. الرياض دار الميمان للنشر والتوزيع.

29. النووي, محي الدين (1419هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط5, بيروت دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.